بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

- ١٣ -

ابن عم رسول الله

صلى الله عليه وسلم

عبدُ اللهِ بنُ الزُّبَيرِ الهاشميّ

رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْـدُ للَّهِ رَبِّ العَـالَمِينَ والصَّـلاةُ والسَّـلامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَصَحْبِهِ وَبَعْدُ:

فَإِنَّ كَثِيراً مـا تَتَشَابَـهُ الأَسْمَاءُ في المُجْتَمَـاتِ الصَّغِيرةِ والضَّيِّقَةِ، إِذْ تَكُونُ مَحْدُودَةً وَمَعْدُودَةً، وَيَطْغَى آسْمٌ على غَيْرِهِ مِنَ الأَسْمَاءِ لِمَرْكَزِ صَاحِبِهِ وَشُهْرَتِهِ، أَوْ لِكَرَمِهِ وَمَعْرِفَتِـه، أَوْ لِشَجَـاعَتِهِ، أَوْ لِنَسَبِـهِ وحِكْمَتِهِ، وَقَـدْ طَغَى آسْمُ عَبْدِاللَّهِ بنِ الـزُّبَيْرِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمـا، مِنْ بَنِي أَسَدٍ عَلَى عَبْـدِاللَّهِ بنِ الزُّبَيْرِ الهاشِمِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَغْمَ أَنَّ الثَّاني مِنْهُما هُـوَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَكْبَرُ سِنّاً، وَلا يَقِلُّ عَنِ الأَوَّلِ نَسَباً وَلاَ قُوَّةً وَلاَ شَجَاعَةً. غَيْرَ أَنَّ أَوَّلَهُمَا هُوَ:

ـ ابْنُ الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحَدُ المُبَشَّرِينَ بِـالْجَنَّـةِ. وَابْنُ عَمَّـةِ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، صَفِيَّةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ـ وَأُمُّهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَكَانَ لَها دَوْرٌ بَارِزٌ في الدَّعْوَةِ وَخَاصَّةً يَوْمَ الهِجْرَةِ، وَهِيَ ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ.

ـ أَوَّلُ مَوْلُودٍ لِلْمُهَاجِرِينَ إِلَى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ فَيَكُونُ قَدْ وُلِدَ مُسْلِماً، وَنَشَأَ عَلَى الإِسْلَامِ، وَلَمْ يَعْرِفِ الجَاهِلِيَّةَ.

ـ كَانَ خَلِيفَةً لِلْمسْلِمِين مُدَةَ تِسْعِ سَنَواتٍ، وَخَرَجَ عَلَيْهِ مَـرْوَانُ بنُ الحَكَمِ، وَعَبْـدُالمَلِكِ بنُ مَـرْوَانَ، واشْتَهَـرَتِ الحُرُوبُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ.

ـ عَاشَ ثَلاثاً وَسَبْعِينَ سَنَةً، وَكَانَ آسْتِشْهَادُهُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، في البَيْتِ الحَـرَامِ، وَفِي رِوَايـةٍ فِي مُنْتَهَى البُـطُولَـةِ وَالشَّجَاعَةِ، كَمَا كَانَ حَدِيثُهُ مَعَ أُمِّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حَدِيثاً نَمُوذَجِيّاً فِي الفِدَاءِ والتَّضْحِيَةِ والإِقْدَامِ وَصِدْقِ البُنُوَّةِ وَإِيمَانِ الأُمُومَةِ.

ـ أَمَّا الثَانِي فَهُوَ دُونَ الأَوَّلِ إِذْ:

ـ أَنَّ أَبَـاهُ رُغْمَ أَنَّهُ عَمُّ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يُسْلِمْ، وَقِيمَةُ المَرْءِ بإِسْلَامِهِ لا بِنَسَبِهِ، لِذَا فَهُوَ دُونَ الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ وَالِدِ الأَوَّلِ.

ـ أَنَّ أُمَّهُ عَاتِكَةَ بِنْتَ أَبِي وَهَبٍ المَخْزُومِيَّةَ لَمْ تُسْلِمْ فَهِيَ دُونَ ذَاتِ النِّطَاقَيْنِ أُمِّ الأَوَّلِ.

ـ تَأَخَّرَ إِسْلَامُهُ حَتَّى فَتْحِ مَكَّةَ فَهُوَ مِنَ الطُّلَقَاءِ، فَكَانَ دُونَ الأَوَّلِ الذي لَمْ يَعْرِفِ الجَاهِلِيَّةَ أَبَداً.

ـ لَمْ يَعِشْ أَكْثَرَ مِنَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً إِذِ آسْتَشْهَدَ في مَعْرَكَةِ أَجْنَادِينَ سَنَةَ ثَلاث عَشْرَةَ.

لِهَذَا كُلِّهِ طَغَى آسْمُ الأَوَّلِ عَلَى الثَّانِي الذِي نَسِيَهُ النَّاسُ وَلَمْ يَذْكُرُوهُ رَغْمَ مَا بَذَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ والإِسْلَامِ. وَبَقِيَ اسْمُ الأَوَّلِ عَبْدُاللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، هُوَ المَعْرُوفُ وَالمَشْهُورُ، أَمَّا الآخَرُ عَبْدُاللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ الهَاشِمِيُّ ابنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهُوَ الَّذِي سَنَتَعَرَّفُ عَلَيْهِ ـ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ـ فَنَرْجُو أَنْ نُوَفَّقَ فِي إِبْرَازِ حَيَاتِهِ وَإِعْطَاءِ صُورَةٍ صَادِقَةٍ عَنْ هَذَا الصَّحَابِيِّ الجَلِيلِ.

إِذَا كَانَ الانْتِمَاءُ لِأُسْرَةٍ دُونَ أُخْرَى لَا يَرْفَعُ وَلَا يَضَعُ فِي نَظَرِ الإِسْلَامِ، إِلَّا أَنَّهُ أَدَاةٌ لِلتَّعْرِيفِ بالرِّجَالِ وَوَسِيلَةٌ لِلتَّعَارُفِ بَيْنَ الشُّعُوبِ، وَمِنْ هُنَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ دِرَاسَةِ أُسْرَةِ الصَّحَابِيِّ عَبْدِاللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ.

كَانَ لِعَبْدِالمُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ عَشَرَةُ أَوْلَادٍ مِنَ الذُّكُورِ وَسِتُّ بَنَاتٍ وَذَلِكَ مِنْ عِدَّةِ نِسَاءٍ، وَكَانَ عَبْدُاللَّهِ وَالِدُ رَسُولِ اللَّـهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالزُّبَيْرُ، وَعَبْدُمَنَافٍ (أَبُو طَالِبٍ) مِن آمْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرٍو المَخْزُومِيَّةُ، كَمَا أَنْجَبَتْ لَهُ هَذِهِ المَرْأَةُ خَمْسَ فَتَيَاتٍ هُنَّ كُلّ بَنَاتِ عَبْدِالمُطَّلِبِ بِاسْتِثْنَاءِ صَفِيَّةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَيَبْـدُو أَنَّ عَبْدَاللَّهِ وَالِـدَ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، كَانَ أَكْبَرَ أَوْلَادِ عَبْدِالمُطَّلِبِ بَعْدَ الحَارِثِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِي حَيَاةِ أَبيهِ. إِذْ تَزَوَّجَ عَبْدُاللَّهِ قَبْلَهُمْ جَمِيعاً، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هُوَ أَكْبَرُ أَبْنَاءِ عُمُومَتِهِ كُلِّهِمْ بَل كَانَ مِنْ جِيـلِ بَعْضِ أَعْمَامِـهِ حَمْزَةَ وَالعَبَّـاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، وَهُمَا اللَّذَانِ أَسْلَمَا فَقَطْ مِنْ بَيْنِ أَعْمَامِهِ، أَمَّا الآخَرُونَ فَمِنْهُمْ مَنْ تُوُفِّيَ قَبْلَ بَدْءِ الدَّعْوَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَافَ عَلَى مَرْكَزِهِ بَيْنَ قُرَيْشٍ أَوْ خَشِيَ أَنْ يُقَالَ عَنْهُ أَنَّهُ صَبَأَ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ قُرَيْشٍ يَوْمَذَاكَ لِمَنْ يَدْخُلُ فِي الإِسْلَامِ مِثْلِ عَبْدِمَنَافٍ أَبِي طَالِبٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَهَرَ بِالكُفْرِ والعِصْيَانِ وَمُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ بِكُـلِّ قُوَّتِـهِ مِثْلِ عَبْدِالعِزَّى أَبِي لَهَبٍ ـ قَبَّحَهُ اللَّهُ ـ.

كَـانَ الزُّبَيْـرُ أَكْبَرَ أَعْمَـامِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ

وَسَلَّمَ، وَكَانَ يُؤْمِنُ بِالبَعْثِ، وَيُحِبُّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ صَغِيرٌ وَيُلَاعِبُهُ وَيَقُولُ:

مُـحَـمَّـدُ بـنُ عَـبْـدَمِ
عِـشْـتَ بِـعَـيْشٍ أَنْـعَـمِ
فِـي عِـزٍّ فَـرْعٍ أَسْـنَـمِ
فِـي دَوْلَـةٍ وَمَـغْـنَـمِ

وَقَادَ الزُّبَيْرُ بَنِي هَاشِمٍ فِي حَرْبِ الفِجَارِ وَقَدْ حَضَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هَذِهِ الحَرْبَ، وَكَانَ يُنَبِّلُ لِأَعَمَامِهِ. كَمَا دَعَا الزُّبَيْرُ الى حِلْفِ الفَضُولِ وَاقْتَرَحَهُ عَلَى قُرَيْشٍ، وَقَدْ تَمَّ فِي دَارِ عَبْدِاللَّهِ بنِ جُدْعَانَ وَحَضَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَزَوَّجَ الزُّبَيْرُ ابْنَةَ خَالِهِ عَاتِكَةَ بِنْتَ أَبِي وَهَبٍ بنِ عَمْرٍو المخْزُومِيَّةَ فَوَلَدَتْ لَهُ ابْنَهُ عَبْدَاللَّهِ هَذا فِي العَامِ السَّابعِ قَبْلَ البِعْثَةِ فَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِثَلاثٍ وَثَلاثِينَ سَنَةً. وَبِذَا فَقَدْ وَرِثَ عَبْدُاللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ الهَاشَمِيُّ زَعَامَةَ وَقُوَّةَ بَنِي هَاشِمٍ وَفُرُوسِيَّةَ وَشَجَاعَةَ بَنِي مَخْزُومٍ.

وتُوُفِّيَ الزُّبَيْرُ فَأَصْبَحَ أَخُوهُ أَبُو طَالِبٍ سَيِّد بَنِي هَاشِمٍ.

إسلام عبد الله

بُعِثَ رَسُــولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، وَأَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ، وَتَعَنَّتَ مَنْ تَعَنَّتَ، أَمَّا عَبْدُاللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ الهَاشِمِيُّ فَقَدْ كَانَ صَغِيراً يَوْمَذَاكَ لَمْ يَتَجاوَزِ السَّابِعَةَ مِنَ العُمْرِ، وَلَمْ يَهْتَمَّ فِيمَا بَعْدُ بِالأَحْدَاثِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا رَغْمَ أَنَّهَا كَانَتْ شُغْلَ مَكَّةَ الشَّاغِلَ وَحَدِيثَ أَهْلِهَا الدَائِمَ. . . يَنَالُ المُسْلِمِينَ أَذَى كِبَارِهَا، وَيَحِيقُ مَكْـرُ عُظَمَـائِهَا بِمَنْ أَسْلَمَ مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ فَيَصْبِرُ مَنْ يَصْبِرُ، وَيُهَـاجِرُ مَنْ يُهـاجِرُ، وَيُخْفِي إِيْمَـانَهُ مَنْ يُخْفِي.

وَهَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةِ، وَقَدْ قَارَبَ عَبْدُاللَّهِ العِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ نَجِدْ لَهُ ذِكْراً فِي تِلْكَ الأَحْدَاثِ مَعَ أَنَّهُ قَدْ شَارَكَ فِيهَا مَنْ هُوَ أَصْغَرُ مِنْهُ، وَرَغْمَ بُلُوغِهِ سِنَّ الشَّبَابِ، وَالرُّجُولَةِ، فَلَمْ يَشْتَرِكْ فِي مَعْرَكَةٍ مَعَ قُرَيْشٍ ضِـدَّ ابْنِ عَمِّهِ كَمَـا لَمْ يُظْهِـرْ مَيْلاً نَحْـوَ الإِسْلَامِ، وَآسْتَمَرَّ هَـذَا وَضْعُهُ حَتَّى فُتِحَتْ مَكَّـةُ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ، وَكَانَ قَدْ تَفَتَّحَ وَنَاهَزَ الثَّامِنَةَ والعِشْرِينَ.

سَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، بِعَشَرَةِ آلافِ مُقَاتِلٍ نَحْـوَ مَكَّةَ، وَوَصَـلَ الخَبَرُ إِلَى أَهْلِهَـا فَاهْتَـزَّتْ وَكَثُرَ الصَّخَبُ فِيهَـا وَالضَجِيـجُ، وَزَادَ الجَـدَلُ حَـوْلَ مُحَمَّـدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَحْبِهِ. . . مَا قُدُومُهُمْ إِلَى مَكَّةَ وَإِنَّ عَهْداً بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ؟ مَاذَا حَدَثَ؟ قُرَيْشٌ نَقَضَتِ العَهْدَ وَدَعَمَتْ قَبِيلَةَ بَكْرٍ عَلَى خُزَاعَةَ، وَخُزَاعَةُ حَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَانْطَلَقَ أَبُو سُفْيَانَ بنُ حَرْبٍ إِثْرَ ذَلِكَ إِلَى المَدِينَةِ لِيُؤَكِّدَ العَهْدَ وَيَزِيدَ مِنْ مُدَّتِهِ، وَلَكِنْ رَفَضَ مُحَمَّدٌ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَلِكَ. هَلْ تُقَاتِلُ مَكَّةُ؟ لاَ قِبَلَ لَهَا بِذَلِكَ! سَارَ أَبُو سُفْيَانَ لِيَسْتَطْلِعَ الأَمْرَ، وَرَجِعَ مِنَ المُعَسْكَرِ الإِسْلاَمِيِّ، وَعَادَ أَمَامَ طَلاَئِعِهِ بِغَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي ذَهَبَ بِهَا، وَرَجعَ خَائِفاً، بَيْنَ جَـوَانِحِهِ شَيءٌ مِنَ الإِيمَـانِ، وَشَيءٌ مِنَ الرُّعْبِ مُقْتَـرِناً بِالخَوْفِ عَلَى الوَجَاهَةِ الزَّائِلَةِ.

وَوَصَلَتْ جَحَافِلُ المُسْلِمينَ إِلَى مَكَّةَ. . . أَعْدَادٌ كَبِيرَةٌ، مُنَظَّمَةٌ غَايَةَ التَّنْظِيمِ، مُنْقَادَةٌ لِقَائِدِهَا تَمَامَ الانْقِيَادِ، تَبْدُو عَلَيْهَا صِفَةُ الخُضُوعِ وَالتَّوَاضُعِ، لاَ صِفَةُ العَسْكَرِ المُنْتَصِرِ وَالفَاتِحِ المُنْتَقِمِ.

وَدَخَلَ المُسْلِمُونَ مَكَّةَ، وَأَسْرَعَ النَّاسُ، مِنْهُمْ مَنِ آتَّجه

إِلَى المَسْجِدِ الحَرَامِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ، وَمِنْهُمْ مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ وَأَغْلَقَ بَابَهُ، فَكُلُّ ذَلِكَ آمِنٌ.

بَدَأَ عَبْدُ اللَّهِ يُفَكِّرُ فِي الإِسْلَامِ ، وَفِي طَاعَةِ القَوْمِ لِابْنِ عَمِّهِ، وَفِي هَذِهِ الجُمُوعِ الغَفِيرَةِ الَّتِي تَنْطَلِقُ بِقَلْبٍ وَاحِدٍ، وَمَضَى اليَوْمُ الأَوَّلُ وَبَاتَتْ مَكَّةُ هَادِئَةً سَاكِنَةً، وَبَعْدَ صَلَاةِ العِشَاءِ انْصَرَفَ النَّاسُ كُلُّ النَّاسِ إِلَى أَمَاكِنِ مَبِيتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنِ انْطَلَقَ إِلَى مُعَسْكَرِهِ وهُمُ المُسْلِمُون القَادِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَارَ إِلَى بَيْتِهِ مُطْمَئِناً، وَقَضتْ مَكَّةُ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِيهَا سَاكِنَةً لا يُزْعِجُ سُكُونَهَا أَيُّ مُزْعِجٍ ، وَلَا يَقْطَعُ هُدُوءَهَا أَيَّةُ حَرَكَةٍ، وَكَانَتْ مِنْ قَبْلُ تَنَامُ وَيُقْلِقُ أَهْلَهَا أَصْوَاتُ السُّكَارَى بَيْنَ آوِنَةٍ وَأُخْرَى، وَالَّتِي لَا تَكَادُ تَنْتَهِي إِلَّا بِانْتِهَاءِ اللَّيْلِ ، أَوْ يُزْعِجُ سَاكِنِيهَا أَصْوَاتُ الزُّعَمَاءِ المُفَخَّمَةُ يُظْهِرُونَ غَطْرَسَتَهُمْ وَيُبْدُونَ كِبْرِيَاءَهُمْ، أَوْ أَنِينُ العَبِيدِ وَقَدْ خُطَّتْ عَلَى أَجْسَادِهِمْ سِيَاطُ سَادَتِهِمْ، أَوْ آهاتُ الحَزَانَى مِنْ قَسْوةِ الجَبَابِرَةِ المُسْتَبِدِّيْنَ، وَكَانَتْ أَيَّامُ الرَّبِيعِ أَجْمَلَ أَيَّامِ مَكَّةَ، لَيْسَ فِيهَا الحرُّ اللَّافِحُ، وَلَا اللَّفَحَاتُ اللَّاهِبَةُ. . . وَكَانَ اللَّيْلُ، وَكَانتِ النَّسَمَاتُ النَّاعِمَةُ المُعْتَدِلَةُ، وَنَامَ النَّاسُ مِلْءَ جُفُونِهِمْ نَوْمَ الأَمْنِ

وَالسَّكِينَةِ، نَوْمَ الهُدُوءِ والطُمَأْنِينَةِ، وَشَعَرُوا بِالارْتِيَاحِ ، وَأَخْذِ الكِفَـايَةِ مِنَ النَّـومِ ، وَإِذَا بِصَوْتِ بِـلَالٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، يَـرْتَفِـعُ لأَوَّلِ مَـرَّةٍ مَـعَ سُكُــونِ اللَّيْـلِ ، فَيَقْــطَعُ الهُـدُوءَ بِكَلِمَـاتِ: «اللَّهُ أَكْبَـرُ»، وَتُـرَدِّدُ المُـرْتَفَعَـاتُ صَـدَى ذَلِــكَ الصَّوْتِ، وَيَغُورُ فِي الأَوْدِيَةِ بِنَغْمَةٍ جَمِيلَةٍ.

صَدَحَ الصَّوْتُ: «اللَّهُ أَكْبَرُ»، فاهْتَـزَّ النَّاسُ، وَاطْمَـأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ فِعْلاً عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ مَا فِي هَذَا الوُجُودِ، أَكْبَرُ مِنَ الجَبَابِرَةِ وَالطُّغَاةِ، أَكْبَـرُ مِـنَ المُسْتَبِدِّيْنَ وَالقُسَاةِ، فَلَقَدْ وَقَفَ كِبَارُ قُرَيْشٍ يُحَارِبُونَ هَذَا النِّدَاءَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ تَمَكَّنُوا مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَرَكَ المُسْلِمونَ دِيَارَهُمْ وَهَاجَرُوا إِلَى المَدِينَةِ، وَتَكَبَّرَ الزُّعَمَاءُ وَتَغَطْرَسُوا. . . وَلَكِنَّهُمْ هُزِمُوا وَصُرِعُوا وَانْتَصَرَ الحَقُّ وَعَلَتْ كَلِمَةُ «اللَّهُ أَكْبَرُ»، وَزَالُوا، وَبَقِيَتْ عَلَى مَدَى الزَّمَانِ.

«أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَارْتَعَدَ أَهْلُ مَكَّةَ إِذْ آمَنُوا حَقاً أَنَّ آلِهَتَهُمْ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ، وَالَّتِي كَانُوا يُشْرِكُونَ بِهَا لَمْ تَـدْفَعْ عَنْهُمْ شَيْئاً، وَلَمْ تَنْفَعْهُمْ، فَلَيْسَ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ المُنْتَقِمُ الجَبَّارُ العَزِيزُ المُتَعَالِ. وَلَقَدْ أَنْكَرُوا ذَلِكَ ثُمَّ خَضَعُوا صَاغِرِينَ.

«أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ» وَلَطَالَمَا وَقَفُوا فِي وَجِه مُحَمَّدٍ، وَجَحَدُوا دَعْوَتَهُ، وَاتَّهَمُوهُ بِالسِّحْرِ، وَبِالجُنُون و. . . وَأَخِيراً خَنَعُوا وَسَكَنُوا، وَالآنَ يُقِرُّونَ شَاؤُوا أَمْ أَبَوْا.

«حَيَّ عَلَى الصَّلاَةِ»، وَهُنَا أَسْرَعَ النَّاسُ إِلَى المَسْجِدِ الحَرَامِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَارَ إِذْ سَارَ النَّاسُ، وَإِذَا كَانَ قَدْ بَقِيَ فِي نُفُوسِ بَعْضِهِمْ شَيءٌ إِلَّا أَنَّهُمْ قِلَّةٌ قَلِيلَةٌ.

وَأَدَّى الجَمِيعُ الصَّلاَةَ، وَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَتْ آيَاتُ اللَّهِ تَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ الشَّرِيفِ، فَتُؤَثِّرُ فِي القُلُوبِ الظَمْأَى، فَتَتَفَتَّحُ مُسْتَقْبِلَةً الإِيْمَانَ كَمَا تَتَفَتَّقُ بَرَاعِمُ الوَرْدِ بِبَرْدِ النَّدَى فِي الصَّبَاحِ مُسْتَقْبِلَةً النُّورَ، وَكَمَا تُؤَثِّرُ نَفَحَاتُ النَّسِيمِ العَلِيلَةُ عَلَى العَيْنِ فَتَكْسِرُ مِنْ أَجْفَانِهَا فَتَذْبُلُ نَاعِسَةً مُسْتَسْلِمَةً لِلنَّوْمِ .

وَأَحَسَّ أَهْلُ مَكَّةَ بِأَثَرِ الإِسْلاَمِ ، وَشَعَرُوا بِقِيمَةِ الإِيْمَانِ، وَصَحَا مِنْ غَفْلَتِهِ مَنْ رَانَتِ الجَاهِلِيَّةُ عَلَى قَلْبِهِ فِيمَا مَضَى مِنْ أَيَّامٍ ، فَأَقْبَلَ عَلَى هَذَا الدِّينِ مُسْتَسْلِماً، وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا نُفُوسٌ قَلِيلَةٌ آسْتَمَرَّتِ الجَاهِلِيَّةُ عَلَيْهَا مُسَيْطِرَةً، بَلْ وَمُتَحَكِّمَةً.

وَتفَتَّحتْ عَيْنا عَبْدِاللَّهِ لِلْنُّورِ، وَانْفَتَحَ قَلْبُهُ الَّذِي بَقِيَ مُغْلَقاً حَتَّى ذَلِكَ اليَوْمِ. انْفَتَحَ لِلإِيْمَانِ، وَأَقْبَلَ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَسَاهُ الرَّسُولُ حُلَّةً، وَأَقْعَدَهُ إِلَى جَنْبِهِ، وَقَالَ: إِنَّهُ ابْنُ أُمِّي وَكَانَ أَبُوهُ بِي بَرّاً. وَأَسْلَمَ عَبْدُاللَّهِ مُنْذُ تِلْكَ السَّاعَةِ، وَاعْتَقَدَ بِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ وَبِمَا وَعَدَ... فخَلَعَ ثَوْبَ الجَّاهِلِيَّةِ وَأَلْقَاهُ وَقَدْ أَحَسَّ بِنَتَنِهِ، وارتدى ثَوْبَ الإِسْلَامِ، وَاسْتَشْعَرَ بِطِيبِ رَائِحَتِهِ فَشَدَّهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَبَدَأَ يَنْطَلِقُ مِنْ خِلَالِهِ... وَعَبْدُاللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هُوَ مِنَ الطُّلَقَاءِ، إِذْ لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَكَّةَ، وَاطْمَأَنَّ النَّاسُ، خَرَجَ حَتَّى جَاءَ البَيْتَ، فَطَافَ بِهِ سَبْعاً عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَلَمَّا قَضَى طَوَافَهُ، دَعَا عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ، فَأَخَذَ مِنْهُ مِفْتَاحَ الكَعْبَةِ، فَفُتِحَتْ لَهُ، فَدَخَلَهَا وَحَطَّمَ الأَصْنَامَ... ثُمَّ وَقَفَ عَلَى بَابِ الكَعْبَةِ فَقَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحدَهُ، أَلَا كُلُّ مَأْثُرَةٍ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدَّعَى فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، إِلَّا سَدَانَةَ الكَعْبَةِ وَسِقَايَةَ الحَاجِ».

«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَتَعَظُّمَهَا بِالآبَاءِ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرابٍ...»

«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَـرَوْنَ أَنِّي فَاعِـلٌ فِيكُمْ؟» فَوَقَفَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ: خَيْـراً، أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. فَقَالَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَـالَ أَخِي يُوسُفُ لإِخْـوَتِهِ: لا تَثْـرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَـوْمَ، يَغْفِـرُ اللَّهُ لَكُمْ»، ثُمَّ قَـالَ: «اذْهَبُـوا فَـأَنْتُمُ الـطُّلَقَاءُ». فَكَـانَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ مَكَّـةَ يَوْمَ فَتْحِهَـا مِنَ الطُّلَقَاءِ.

عَبْدُ اللهِ في حُنَيْن

اهْتَزَّتِ القَبَائِلُ العَرَبِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لَا تَزَالُ عَلَى الوَثَنِيَّةِ، وَخَاصَةً القَرِيبَةُ مِنَ الحَرَمِ ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا عَلِمَتْ أَنَّ المُسْلِمِينَ قَدْ دَخَلُوا البَيْتَ الحَرَامَ، وَأَزَالُوا مِنْهُ مَعَالِمَ الشِّرْكِ وَالوَثَنِيَّةِ، وَحَطَّمُوا الأَصْنَامَ، وَدَانَتْ لَهُمْ قُرَيْشٌ، لِذَا قَرَّرَتْ هَذِهِ القَبَائِلُ قِتَالَ المُسْلِمِينَ، فَجَمَعَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّصْرِيُّ قَبِيلَةَ هَوَازِنَ، كَمَا ٱجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ ثَقِيفٌ كُلُّهَا، وَنَصْرُ، وَجُشَمُ، وَسَعْدُ بْنُ بَكْرٍ، وَبَعضُ بَنِي هِلَالٍ ، وَاسْتَاقُوا مَعَهُمُ الذَّرَارِي ، وَالمَوَاشِي ، وَأَخَذُوا الأَمْوَالَ كَيْ يَثْبُتُوا عِنْدَ القِتَالِ ـ عَلى حَدِّ زَعْمِهِمْ ـ وَسَبَقَتْ هَذِهِ الجُمُوعُ المُسْلِمِينَ، وَكَمَنَتْ لَهُمْ فِي وَادِي حُنَينٍ وَثَنِيَّاتِهِ وَشِعَابِهِ.

وَوَصَلَ الخَبَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَمْكُثْ فِي مَكَّةَ بعد فَتْحِها أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً، سَارَ وَمَعَهُ عَشَرَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ انْطَلَقَ بِهِمْ مِنَ المَدِينَةِ، كَمَا سَارَ مَعَهُ أَلْفَانِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مِمَنْ دَخَلَ فِي الإِسْلَامِ

حَدِيثاً، وَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، إِلَى هَذِهِ الأَعْدَادِ فَقَالَ: لَنْ يُغْلَبَ مِثْـلُ هَؤُلَاءِ مِنْ قِلَّةٍ، كَمَا أَعْجَبَتِ هَذِهِ الكَثْرَةُ أَهْلَ مَكَّةَ... ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَـا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِـرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَـا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ﴾[1].

وَلَمَّا اسْتَقْبَلَ المُسْلِمُونَ وَادِيَ حُنَيْنٍ وَانْحَدَرُوا فِي وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ تِهَامَةَ مُتَّسِعٍ وَمُنْحَدِرٍ إِذَا بِكَتَائِبِ هَوَازِنَ وَجُمُوعِهَـا قَدْ شَدُّوا عَلَى المُسْلِمِينَ شَدَّةَ رَجُـلٍ وَاحِدٍ، وَهُمْ لَمْ يَشْعُـرُوا بِمَكَـانِهِمْ، فَانْشَمَـرَ المُسْلِمُونَ رَاجِعِـينَ لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَآنْحَازَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى اليَمِينِ ثُمَّ نَادَى: «أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ؟ هَلُمُّوا إِلَيَّ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، أَنَا مُحَمَّـدُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ»، وَلَكِنْ لَمْ يَـرْعَوِ المُسْلِمُـونَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا نَحْوَهُ.

وَأَسْـرَعَ المُشْرِكُـونَ نَحْـوَ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ

(١) سورة التوبة: الآيتان ٢٥، ٢٦.

وَسَلَّمَ، بِأَعْدَادٍ كَبِيـرَةٍ كَالسَّيْـلِ الجَارِفِ، وَالـرِّمَاحُ مُشْـرَعَةٌ نَحْوَهُ، وَالسُّيُوفُ مُشْهَرَةٌ عَلَيْهِ، وَالعَجَاجُ يَتَصَاعَدُ مِنْ زَحْفِهِمْ، فَثَبَتَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَثَبتَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وَالعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِالمُطَّلِبِ، وَالفَضْلُ بنُ العَبَّاسِ، وَأَبُو سُفْيَانَ (المُغِيـرَةُ) بْنُ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِالمُطَّلِبِ، وَابْنُهُ جَعْفَرُ، وَرَبِيعَةُ بْنُ الحَارِثِ بْنِ المُطَّلِبِ، وَعَبْـدُاللَّهِ بْنُ الـزُّبَيْـرِ بْنِ عَبْـدِالمُـطَّلِبِ، وَأُسَـامَــةُ بْنُ زَيْـدٍ، وَأَيْمَنُ بْنُ عُبَيْدٍ، وَنَفرٌ آخَـرُونَ. ثَبَتَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ هَؤُلَاءِ القِلَّةِ، وَكَانَتْ سَاعَةٌ حَرِجَةٌ يَتَصَاعَـدُ الغُبَارُ مِنْ هَجَمَاتِ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، مَعَ صَحْبِهِ، ثَابِتُونَ كَالطَّوْدِ الشَّامِخِ فَلَا تَرَى إِلَّا لَمَعَانَ السُّيُوفِ بَيْنَ الغُبَارِ المُتَصَاعِدِ وَالأَصْوَاتِ المَكْتُومَةِ، وَالقَتْلَى تَتَسَـــاقَطُ مِنَ المُشْـرِكِينَ، وَقَــدْ اسْتُشْهِـدَ أَيْمَنُ بْنُ عُبَيْــدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُ الاسْتِمْرَارُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ إِذْ أَنَّ أَعْدَاداً لَا تَصِلُ إِلَى العِشْرِينَ مُقَاتِلاً أَبَداً تُدَافِعُ أَمَـامَ جُمُوعٍ بِآلَافٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَبَّاسُ اصْرُخْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ: يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ السَّمُرَةِ».

فَنَادَى العَبَّاسُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِصَوْتِهِ الجَهوَرِيِّ، فَأَجَابُوا: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنَ المُسْلِمِينَ يَهُمُّ لِيَثْنِي بَعِيرَهُ فَلَا

يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَيَأْخُذُ دِرْعَهُ فَيَقْذِفُهَا فِي عُنُقِهِ، وَيَأْخُذُ سَيْفَهُ وَتِرْسَهُ وَيَقْتَحِمُ عَنْ بَعِيرِهِ وَيُخْلِي سَبِيلَهُ، فَيَؤُمُّ الصَّوْتَ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ مِائَةٌ اسْتَقْبَلُوا النَّاسَ فَاقْتَتَلُوا. وَكَانَتِ الدَّعْوَةُ أَوَّلَ مَا كَانَتْ: «يَا لَلأَنْصَارِ» ثُمَّ خَلَصَتْ أَخِيراً «يَا لَلْخَزْرَجِ»، وَكَانُوا صُبُراً عِنْدَ الحَرْبِ. فَأَشْرَفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي رَكَائِبِهِ، فَنَظَرَ إِلَى مُجْتَلَدِ القَوْمِ وَهُمْ يَجْتَلِدُونَ فَقَالَ: «الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ».

وَاشْتَدَّتِ المَعْرَكَةُ وَثَبَتَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الهَاشِمِيُّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي البِدَايَةِ وَاسْتَمَرَّ فِي ثَبَاتِهِ بَعْدَ أَنْ ثَابَ المُسْلِمُونَ إِلَى رَسُولِهِمُ الكَرِيمِ وَلَمْ تَكِلَّ سَاعِدُهُ، وَتَكَسَّرَتْ عِدَّةُ سُيُوفٍ فِي يَدِهِ وَهُوَ يَذُودُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَتَنَفَّسِ الصُّعَدَاءَ حَتَّى هُزِمَ العَدُوُّ، وَوَلَّتْ هَوَازِنُ الأَدْبَارَ، وَجَمَعَ المُسْلِمُونَ الغَنَائِمَ وَالسَّبَايَا فِي الجِعْرَانَةِ. وَاشْتَدَّ القَتْلُ بَعْدَئِذٍ فِي ثَقِيفٍ، فَفَرَّتْ وَسَارَتْ إِلَى الطَّائِفِ فَتَحَصَّنَتْ بِهَا، وَلَحِقَهَا المُسْلِمُونَ وَحَاصَرُوهَا فِي الطَّائِفِ مَا يَقْرُبُ مِنْ عِشْرِينَ يَوْماً، ثُمَّ فَكُّوا الحِصَارَ وَعَادُوا إِلَى الجِعْرَانَةِ، فَقَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

الغَنَـائِمَ، وَأَعْـطَى المُؤَلَّفَـةَ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ عَبْـدُاللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى شَيءٍ. وَعَادَ المُسْلِمُونَ بَعْدَئِذٍ إِلَى مَكَّةَ، وَلَمْ يَمْكُثْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، فِيهَا طَوِيلاً إِذِ انْطَلَقَ إِلَى المَـدِينَةِ مَـعَ مَنْ جَاءَ مَعَـهُ مِنْهَا، فَوَصَلَ إِلَيْهَا في الرَّابعِ والعِشْرِينَ مِنْ ذِي القِعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ، وَحَجَّ فِي هَذِهِ السَّنَةِ بِالنَّاسِ عَتَّابُ بْنُ أَسِيْـدٍ الَّذِي وَلاَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ خَرَجَ مِنْهَا سَواءً إِلَى حُنَيْنٍ أَمْ إِلَى المَدِينَةِ.

عَبْدُ اللَّهِ فِي مَكَّةَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ

بَقِيَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ غَادَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ دَائِمَ التَّفْكِيرِ فِي أَيَّامِهِ الخَوَالِي الَّتِي ضَاعَتْ مِنْ حَيَاتِهِ دُونَ أَنْ يُقَدِّمَ شَيْئاً، فَبَدَأَ يَجْتَهِدُ بِالعِبَادَةِ وَيَجِدُّ بِالطَّاعَةِ، وَلَكِنْ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَلْحَقَ السَّابِقِينَ مِنَ المُسْلِمِينَ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الحُسْنَى، واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(١). وَفِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ حَجَّ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِالنَّاسِ، وَكَانَتْ قَدْ نَزَلَتْ سُورَةُ «بَرَاءَة» فَحَمَلَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَرَأَهَا فِي مَوْسِمِ الحَجِّ، وَانْتَهَى حَجُّ المُشْرِكِينَ وَالصُّورَةُ القَدِيمَةُ الَّتِي كَانَ يَأْتِي بِهَا العَرَبُ لِتَأْدِيَةِ المَوْسِمِ.

(١) سورة الحديد: الآية ١٠.

وَفِي السَّنَـةِ العَاشِـرَةِ حَجَّ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَجَّةَ الوَدَاعِ ، وَسُرَّ المُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بِالالْتِقَاءِ بِـرَسُـولِهِمُ الكَـرِيمِ ، وَمِنْهُمْ ابْنُ عَمِّـهِ عَبْـدُاللَّهِ بْنُ الـزُّبَيْـرِ الهَاشِمِيُّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالَّذِي رَغِبَ أَلَّا يُفَارِقَهُ، وَلَكِنِ انْتَهَى المَـوْسِمُ بِسُرْعَـةٍ وَرَجَعَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةِ، وَكَانَتْ أَيَّامُهُ فِيهَا أَيْضاً قَليلةً إِذْ لَمْ تَزِدْ كَثِيراً عَلَى السَّبْعِينَ يَوْماً حَتَّى انْتَقَلَ إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى فِي الثَّانِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ ، وَاكْتَمَلَ الدِّينُ، وانْتَهَى التَّشْرِيعُ، وانْقَطَعَ الوَحْيُ عَنِ الأَرْضِ نِهَـائِياً، وَكَـانَ لِوَفَـاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الوَقْعُ الصَّعْبُ فِي نَفْسِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ الهَاشِمِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَكِنْ أَمْرُ اللَّهِ. وَلَمَّـا كَـانَتْ صُحْبَتُـهُ قَلِيلَةً لِـذَا فَلَمْ يَـرْوِ أَيَّ حَـدِيثٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَبَـايَعَ المُسْلِمُـونَ أَبَا بَكْـرٍ الصِّدِّيقَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، وَارْتَـدَّتْ كَثِيرٌ مِنَ القَبَـائِلِ العَـرَبِيَّةِ، وَنَجَمَ النِّفَـاقُ، وَجَـرَّدَ الصِّدِّيقُ السَّيْفَ لِقِتَالِ المُرْتَدِّينَ، فَدَانَتْ الجَزِيرَةُ العَرَبِيَّةُ مَرَّةً أُخْرَى لِلإِسْلَامِ . وَلَمَّا انْتَهَى أَمْرُ المُرْتَدِّينَ اتَّجَهَتِ الجُيُوشُ الإِسْلَامِيَّةُ نَحْوَ العِرَاقِ وَالشَّـامِ تُقَاتِـلُ الفُرْسَ وَالـرُّومَ الَّذِينَ

كَانُوا مِنْ وَرَاءِ الْمُرْتَدِّيْنَ وَقَدْ شَجَّعُوهُمْ فِي حَرَكَاتِهِمْ، وَتُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَيْثُ كَانَ الفُرْسُ وَالرُّومُ يُمَثِّلُونَ الظُّلْمَ، وَيَسْتَضْعِفُونَ النَّاسَ، وَيَقِفُونَ فِي وَجْهِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ.

عَبْدُاللهِ فِي صُفوفِ المجَاهِدِين

انْطَلَقَ المُجَاهِدُونَ فِي كُلِّ جِهَةٍ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِيُخْرِجُوا النَّاسَ مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الوَثَنِيَّةِ والشِّرْكِ وَعِبَادَةِ العِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ، وَلِيُنْقِذُوهُمْ مِنَ الظُّلْمِ وَالجَوْرِ إِلَى العَدَالَةِ وَالحَقِّ، وَلِيُخَلِّصُوهُمْ مِنْ ضِيقِ الأَدْيَانِ إِلَى سَعَةِ الإِسْلَامِ وَرَحْمَتِهِ.

وَخَرَجَتْ أَرْبَعَةُ جُيُوشٍ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، وَسَارَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الهَاشِمِيُّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي أَحَدِهَا، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَقُودُهُ عَمْرُو بْنُ العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاشْتَرَكَ فِي مَعْرَكَةِ اليَرْمُوكِ، وَفِي فَتْحِ دِمَشْقَ، وَكَانَ يُقَاتِلُ بِكُلِّ هُدُوءٍ، يَكَادُ لَا يُسْمَعُ لَهُ صَوْتٌ إِلَّا التَّكْبِيرُ، فَإِذَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنَ الأَعْدَاءِ يُرِيدُ المُبَارَزَةِ وَيَدْعُو لَهَا، خَرَجَ لَهُ عَبْدُاللَّهِ مُبَاشَرَةً، فَإِذَا سَكَتَ الأَمِيرُ صَالَ وَجَالَ وَقَتَلَ العَدُوَّ، وَإِذَا أَشَارَ لَهُ بِالرُّجُوعِ عَادَ، وَمَا يَأْمُرُ القَائِدُ بِالهُجُومِ إِلَّا وَيَنْطَلِقُ كَالسَّهْمِ يَعْمَلُ حَصْداً فِي الأَعْدَاءِ حَتَّى تَأْتِيَهُ الأَوَامِرُ

بِالوُقُوفِ، وَكَمْ تَكَسَّرَتْ فِي يَدِهِ السُّيُوفُ وَمَا شَعَرَ بِالتَّعَبِ، إِذْ كَانَتِ الشَّهَادَةُ مُبْتَغَاهُ لِيُحَصِّلَ مَا ضَاعَ عَلَيْهِ مِنْ أَيَّامِ شَبَابِهِ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ الحَقَّ وَيَدْخُلَ فِي الإِسْلَامِ.

وَلَمَّا انْتَهَى المُسْلِمُونَ مُجْتَمِعِينَ مِنْ فَتْحِ دِمَشْقَ، اتَّجَهَ كُلُّ قَائِدٍ إِلَى الجِهَةِ الَّتِي كُلِّفَ بِهَا، فَسَارَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الجُنْدِ إِلَى فِلَسْطِينَ لِيَقْضِيَ عَلَى الرُّومِ فِيهَا، وَاتَّجَهَ إِلَى أَجْنَادِينَ فِي جَنُوبِ فِلَسْطِينَ بَيْتَ الرَّمْلَةِ وَبَيْتَ جِبْرِينَ أَوْ فِي مَوْقِعِ الفَالُوجَةِ أَوْ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْهَا، وَالْتَقَى هُنَاكَ بِالرُّومِ، وَاصْطَفَّ الطَّرَفَانِ لِلْقِتَالِ، وَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ الرُّومِ بَطْرِيقٌ، وَدَعَا إِلَى النِّزَالِ، فَخَرَجَ لَهُ عَبْدُاللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الهَاشِمِيُّ فَقَتَلَهُ بَعْدَ أَنِ اخْتَلَفَا ضَرَبَاتٍ، ثُمَّ بَرَزَ لَهُ آخَرُ فَضَرَبَهُ عَبْدُاللَّهِ عَلَى عَاتِقِهِ وَقَالَ لَهُ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ عَبْدِالمُطَّلِبِ فَأَثْبَتَهُ، وَقَطَعَ سَيْفُهُ الدِّرْعَ، وَأَشْرَعَ فِي مَنْكِبِهِ، ثُمَّ وَلَّى الرُّومِيُّ مُنْهَزِماً، وَعَزَمَ عَلَيْهِ عَمْرُو بْنُ العَاصِ أَلَّا يُبَارِزَ، فَقَالَ: لَا أَصْبِرُ، فَلَمَّا بَدَأَ الهُجُومُ وَاخْتَلَطَتِ السُّيُوفُ، انْطَلَقَ يُقَاتِلُ، فَكَانَ الرُّومُ يَفِرُّونَ مِنْ وَجْهِهِ، وَهُوَ يَدْخُلُ فِي صُفُوفِهِمْ فَتَبْتَعِدُ الأَبْطَالُ مِنْ أَمَامِهِ، وَفَرَّتْ كَوْكَبَةٌ مِنْ رِجَالَاتِ العَدُوِّ أَمَامَهُ فَلَحِقَ بِهِمْ، فَكَانَ يُدْرِكُ الوَاحِدَ بَعْدَ الآخَرِ

فَيَقْتُلُهُ، فَلَمَّا رَأَوْا مَا يَحِلُّ بِهِمْ وَهُوَ وَحْدُهُ يَتْبَعُهُمْ، رَجَعُوا إِلَيْهِ، بَعْدَ أَنْ شَجَّعَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَبَدَأُوا يُقَاتِلُونَهُ، فَطاعَنَهُمْ كُلَّهُمْ وَأُصِيبَ، وَأَثْخَنَتْهُ الجِرَاحُ وَقَدْ قَضَى عَلَيْهِمْ جَمِيعاً ثُمَّ وَقَعَ مُغْمَىً عَلَيْهِ حَتَّى فَاضَتْ رُوحُهُ إِلَى بَارِئِهَا.

وَلَمَّا انْهَزَمَتِ الرُّومُ انْطَلَقَ الفَضْلُ بْنُ العَبَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بِمِائَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ يُفَتِّشُ عَنِ ابْنِ عَمِّهِ البَطَلِ، وَسَارُوا نَحْوَ مِيلٍ، فَوَجَدُوهُ شَهِيداً بَيْنَ عَشْرَة مِنَ الرُّومِ قَتَلَهُمْ أَيْضاً، وَوُجِدَ أَنَّ قَائِمَ سَيْفِهِ قَدْ لَصِقَ بِيَدِهِ وَفِي وَجْهِهِ ثَلاَثُونَ ضَرْبَةً، فَدَفَنَهُ وَدَعَا لَهُ. . .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ أُولَئِكَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ ضَحُّوا بِأَرْوَاحِهِمْ وَبِكُلِّ مَا يَمْلِكُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَكُتِبَ لَهُمُ الخُلُودُ فِي الدُّنْيَا بِالذِّكْرِ الطَّيِّبِ وَالقُدْوَةِ الحَسَنَةِ، وَفِي الآخِرَةِ بِالنَّعِيمِ المُقِيمِ، كَمَا كُتِبَ المَجْدُ لِخَلَفِهِمْ بِمَا قَدَّمُوا لَهُمْ.